5. العمارة الزيرية:

عند انتقال الفاطميين إلى مصر عهدوا بولاية الأمر نيابة عنهم للزيريين من صنهاجة، ووقع اختيارهم على أبي الفتوح يوسف بلكين بن زيري ليتولى الإمارة نيابة عنهم، ورغم أنهم تعهدوا في البداية بالولاء للفاطميين إلا أنهم سرعان ما أعلنوا خروجهم على واستقلالهم عن تاج الخلافة الفاطمية، وكان ذلك في ولاية الأمير المعز بن باديس لإفريقية سنة 406هـ/1016م، فألغى المذهب الشيعي وأعلن العودة للمذهب السني المالكي وأرسل للخليفة العباسي القائم بأمر الله يطلب منه أن يرسل إليه عهدا بالولاية على إفريقية والمغرب فلبى طلبه، واتخذ الزيريون من المنصورية عاصمة لهم بعد أن انتقلوا إليها من آشير سنة 362هـ/972م، فأصبح تحت حكمهم عاصمتين أخريين هما أشير والقيروان.

* جامع آشير:

تعود مدينة آشير إلى القرن 10م وهي أول عاصمة زيرية، وبينت الحفريات والدراسات التي أجريت بآشير في وقت وجيز مبان رئيسية، كما أسفرت حفريات سطحية عن تفاصيل تخص هندسة جامع موقع بنية، فهو حسب وصف جورج مارسي تحويط جداري مبني بحجارة كبيرة على شكل مستطيل مقاساتها 21م طولا و19م عرضا، وبداخله يلاحظ صحن وبيت للصلاة يتقدم جدارها الجنوبي محراب ومؤلفة من 06 صفوف كل صف مؤلف من 04 أعمدة، وبالتالي تقطعها طوليا 07 أروقة عمودية على جدار القبلة، و 05 بلاطات موازية لجدار القبلة بما فيها البلاطة المستعرضة، بالنسبة لهذه الأعمدة فأغلبها أسطوانية بقطر 0.35م وهناك عمود ذو مقطع مثمن ومخدد في الجزء العلوي، كما يلاحظ على هذا الأخير تجويفين على الجانبين المتقابلين منه يحتمل أنها لتثبيت درابزين، مما يرجح فرضية أنها مخصصة لتثبيت مقصورة الحاكم الخشبية شأنه شأن المساجد الفاطمية لذلك العهد.

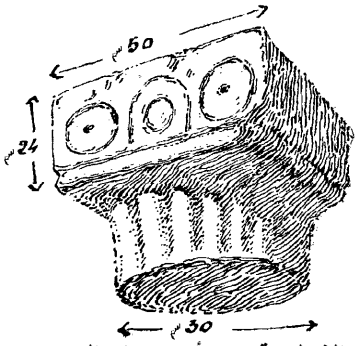

الشكل رقم01: أحد تيجان المسجد آشير

بالنسبة للتيجان فقد شكلت وفقا للنمط الذي سوف انتشر في بلاد الأندلس والمغرب في الفترة الموريسكية، بحيث نلاحظ كتلة سفلى مخددة وهذه الزخارف تشبه زخارف الأوراق المستقيمة التي تحل محل أوراق الأكنثس في التيجان المسيحية، أما الجزء العلوي ذو مخطط مربع يزين وجهاه المتقابلان بدوائر وأقواس منقطة، وهي تذكرنا ببعض الشبه بينها وبين تلك الزخارف التي تزين الأفاريز مسجد ابن طولون وتلك اللوحات لقصور سامراء.

أما المئذنة لم يعثر عليها إلى حد الساعة ربما ستكشف عنها الحفريات مستقبلا.

* جامع أبي مروان بعنابة:

شيد الزيريون في القرن 11 مسجد أبي مروان بعنابة، وقد كان هذا المسجد إلى غاية الاحتلال الفرنسي في حالة حسنة، وتعطينا تلك الطبعات الحجرية التي قام بها كل من ليسور و"ويل" وكذلك صور "بربروجر" فكرة عن هذا المسجد قبل تحويله إلى مستشفى.

الصورة رقم01: واجهة مسجد أبي مروان

تضم قاعة الصلاة سبع بلاطات متعامدة مع جدار القبلة وسبعة أخرى موازية له الشيء الذي يعطي صفوف أقواس في الاتجاهين، هذا التصميم يعد من مميزات عدة مساجد بتونس خاصة المسجد الكبير بسوسة وبلبيبا (مسجد أحمد باشا) وبأسبانيا (المسجد الصغير باب المردوم بطليطلة)، وصحن المسجد محاط بأروقة.

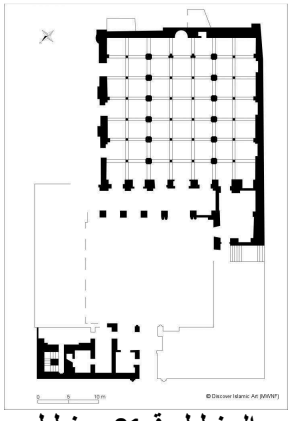
المخطط رقم01: مخطط المسجد

يتوفر جامع أبي مروان قبل تحويله إلى مستشفى على مجموعتين من الأعمدة المزدوجة التي تحمل قباب المجاز ومجموعتين ثلاثية على مستوى المحراب، ويضم هذا الأخير كوة مقوسة ذات عقد متجاوز كما هو الحال في مسجد الأزهر بالقاهرة وتونس وصفاقس وسوسة، قاعة الصلاة مغطاة بأقبية متقاطعة شبيهة بتلك الموجودة بالمسجد الزيري بصفاقس، وهو نمط

تغطية فرض نفسه خلال القرن 10 واستمر حتى القرن 11م.

يتوفر المسجد على مجموعة غنية من التيجان الزيرية ذات الزخارف المتنوعة كتلك الموجودة بسوسة ومنستير وصبرا المنصورية المشتقة من التيجان القبطية المحفوظة حسب مارسي بمتحف بولاق، في حين يرى ليزين أنها أكثر علاقة مع التيجان الأموية بسوريا وتيجان مصر الفرعونية.

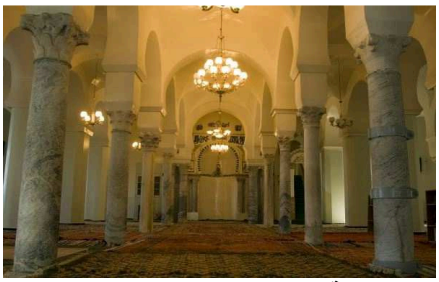

الصورة رقم02: بيت الصلاة ومحراب المسجد

الصورة رقم03: أحد تيجان المسجد

القباب التي تزين طرفي الصحن المركزي فوق المجاز مميزة جدا، وتذكرنا هذه القبيبات المضلعة بمسجد القرويين بفاس وبقبة بن الخاوي بسوسة بتضلعات متعرجة تزين سطحهما، ولكن هاتين القبتين زالتا للأسف وهدمتا بعد سنة 1830، كما أن شكلها البيضاوي يشبه شكل قبة الصخرة بالقدس، وتبدو واجهة قاعة الصلاة بأعمدتها المزدوجة على مستوى البلاط المحوري والقبة المضلعة التي ترتفع فوق المجاز والبلاط الأوسط الواسع تأثيرا معماريا من الطراز القيرواني.

كما ولحسن الحظ بقي القسم الأسفل من الصومعة الزيرية وهي مهمة للغاية حيث نجد داخلها مصلى بمحرابه وهي حالة فريدة من نوعها لصومعة تضم مسجدا يشبه مصلى برج قلعة خلف بسوسة، وتتخذ الشرافات التي تعلو الصومعة شكل عقود منكسرة تذكر بشرافات رباط سوسة، وتشبه الصومعة المربعة الزوايا التي تتشكل من ثلاث مستويات متراكبة صومعة المسجد الكبير بصفاقس.

اهتم بنو زيري إلى جانب هذا بترميم وتجديد المساجد القديمة أكثر من اهتمامهم بإنشاء أخرى جديدة خاصة في عاصمتهم القيروان، ونشير هنا إلى تلك الإضافات التي قاموا بها بمسجد القيروان، فقد أضافوا الواجهات التي تطل على الصحن، وتوجد على إحدى أعمدة المجنبة الغربية كتابة نصها "هذا ما أمر بعمله خلف الله بن غازي الأشيري في رمضان من إثنين وأربعمائة"، كما أضاف المعز بن باديس والي المستنصر مقصورة نفيسة لا تزال موجودة، كما ذكر جورج مارسي أن المعز جدد الأسقف الخشبية وزخارفها.

أما في جامع الزيتونة فقد قام المنصور بن أبي الفتوح يوسف بن زيري والي الخليفة الفاطمي العزيز بالله على إفريقية بإضافة الأسكوب الثامن الموازي لجدار القبلة، وأقام على نهاية البلاط من ناحية الصحن قبة البهو المماثلة في طراز منطقة انتقالها وشكل الرقبة وظاهر القبة لقبة المحراب.

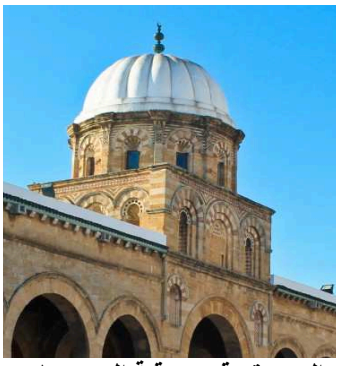

الصورة رقم04: قبة البهو بجامع الزيتونة